رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٦- ٥٧][١].

قال طائِفة مِن السَّلَف: كان أقوام يَدعُون العُزَير والمَسِيح والمَلائكة: فأنزل الله هذه الآيةَ، وقد أَخبر فيها أن هؤلاء المسؤولين يَتقرَّبون إلى الله، ويَرجُون رحْمَته ويَخافون عذابه.

وقد ثَبَت في الصَّحِيح: أن أبا هريرة قال: يا رسول الله، أيُّ الناس أسعدُ بشفاعتك يوم القِيامة؟ قال: «**يَا أَبَا هُرَيرَةَ، لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنْ لا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَولَى مِنْكَ، لِـمَا رَأَيْتُهُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ**».

فكُلَّما كان الرجل أتمَّ إخلاصًا لله كان أحقَّ بالشفاعة، وأمَّا مَن عَلَّق قَلْبَه بأحد مِنَ المَخلُوقِين يَرجُوه ويَخافُه فهذا مِن أبعد الناس عن الشفاعة.

فشفاعة المَخلُوق عند المَخلُوق تكون بإعانة الشافع للمَشفُوع له، بغير إذن المَشفُوع عنده؛ بل يَشفَع إمَّا لحاجة المَشفُوع عنده إليه، وإمَّا لخَوْفه مِنه، فيَحتاج إلى أن يَقبَل شفاعته، والله تعالى غَنِيٌّ عن العالَمين[٢]، وهو وحده سبحانه يُدبِّر العالَمِين كلهم؛

---

[١] معنى الآية: أنَّ هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله تعالى وتظنُّون أنهم ينفَعُونكم أو يَضرُّونكم هم أنفسُهم يبتَغُون إلى ربِّهم الوسيلة -أي: الطريق التي تُوصِلهم إليه وإلى قُربه- فإذا كانوا كذلك هم مُفتقِرون، فكيف تَدعُونهم أنتم؟!

[٢] يعني: أنَّ غَيرَ اللهِ تعالى قد يُشفَع عندَه بلا إذنٍ، فيُوافق إمَّا لحاجته إلى الشافِع لكونِه يخدمُه، أو يأتي له بالأمور، أو ما شابه ذلك، وإمَّا لخوفه منه إن رَدَّ شفاعتَه، لكنَّ الله سبحانه لكمال سُلطانه وعظمته لا يشفع عنده إلا بإذنه، وإذا كان كما قال شيخ الإسلام رحمه الله: إذا كان سيِّد الشُّفَعاء محمد ﷺ لا يشفعُ إلا بإذن الله فمَن دُونَه من باب أَوْلَى.

فما مِن شَفِيع إلا مِن بَعد إذنه، فهو الذي يَأذن للشفيع في الشفاعة، وهو يَقبَل شفاعته، كما يُلهِمُ الداعيَ الدُّعاء، ثمَّ يُجِيب دعاءه؛ فالأَمْر كله له.

فإذا كان العبد يَرجو شفيعًا مِن المَخلُوقِين فقد لا يَختار ذلك الشفيع أن يَشفَع له، وإنِ اختار، فقد لا يَأذَن الله له في الشفاعة، ولا يَقبَل شفاعته.

وأفضل الخلق: محمد ثمَّ إبراهيم صلى الله عليهما وسلم، وقد امتنع النبي ﷺ أن يَستغفِر لعمِّه أبي طالب، بعد أن قال: «لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»[1]، وقد صلَّى على المُنافِقين ودعا لهم، فقيل له: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤]، وقيل له أولًا: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة:٨٠]، فقال: «لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَـهُمْ لَزِدْتُ»، فأنزل الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون:٦].

وإبراهيم: قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود:٧٤-٧٦].

ولـمَّا استغْفَر إبراهيم عليه السلام لأبيه بعد وَعْده بقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم:٤١]؛ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ

---

[١] قول الرسول ﷺ: «لأستغفِرنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»[1] هذا يُشعِر أنَّ رسول الله ﷺ كان في قَلَقٍ عندَ استغفارِه لعَمِّه أبي طالبٍ؛ فليست نفسُه طيِّبةً بأنْ يستغفر لعَمِّه، لكن كأنَّه يُجْبِر نفسَه على أنْ يستغفِرَ له ويتوقَّع أنَّه ينهى عنه، والأمر وقَع كما توقَّع عليه الصَّلاة والسلام.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله، رقم (٢٤/ ٣٩) من حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة:٤].

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ ﴾ [التوبة:١١٣- ١١٤].

والله سبحانه له حقوق لا يَشرَكه فيها غيرُه، وللرُّسُل حقوق لا يَشرَكهم فيها غيرُهم، وللمُؤمِنين بعضهم على بعض حقوق مُشتَرَكة.

ففي الصحيحين: عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنت رِدْف النَّبِيِّ ﷺ فقال لي: «يَا مُعَاذُ! أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قُلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: «حَقُّه عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ لا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» قُلْتُ: الله ورسوله أعلَم، قال: «حَقُّهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ».

فالله تعالى مستَحِقٌّ أن نَعبُده لا نُشرِك به شيئًا، وهذا أصل التَّوحِيد الذي بُعِثتْ به الرُّسُل، وأُنزِلتْ به الكُتُب.

قال الله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾ [الزخرف:٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

ويَدخُل في ذلك أن لا نَخاف إلا إيَّاه، ولا نَتَّقي إلا إيَّاه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [النور:٥٢].

فجَعَل الطاعة لله وللرسول، وجعل الخَشية والتَّقوى لله وحده، وكذلك قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة:٥٩].

فجَعَل الإيتاء لله وللرسول، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٨]، فالحلال ما حَلَّله الرسول، والحرام ما حَرَّمه الرسول، والدِّين ما شَرَعه الرسول.

وجَعَل التَّحسُّب بالله وحده؛ فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾، ولم يَقُل: ورسوله، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤]، أي: حَسْبك وحَسْب من اتَّبعك الله، فهو وحده كافيكم، ومَن ظنَّ أن مَعناها: حَسْبُك الله والمُؤمِنون، فقد غَلِط غلطًا عظيمًا؛ لوجوه كثيرة مَبسوطة في غير هذا المَوضِع[١].

---

[١] قد أشارَ ابن القيِّم رحمه الله في «زاد المعاد»(١) إلى بُطلان هذا التأويل في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾؛ لأنَّ مَنْ هنا معطوفةٌ على الكاف في: ﴿حَسۡبُكَ﴾، وليست معطوفةً على لفظ الجلالة: ﴿ٱللَّهُ﴾، وهذا مُتعيِّن، ولا يُمكن أن يكون المتَّبعون للرسول عليه الصَّلاة والسلام حَسْبًا للرسولِ؛ لأنَّ هذا يتضمَّن أن يكونوا أعلى من الرسول عليه الصَّلاة والسلام.

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣٥).

ثم قال: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ فجَعَل الفَضْل لله، وذَكَر الرسول في الإيتاء؛ لأنه لا يُباح إلا ما أَباحه الرسول، فليس لأحَد أن يَأْخُذ ما تَيسَّر له، إن لم يكن مُباحًا في الشريعة[1].

ثم قال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ فجَعَل الرَّغْبة إلى الله وحده، دون ما سواه، كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح:٧-٨] فأَمَر بالرغبة إليه.

ولم يَأْمر الله قطُّ مَخْلوقًا أن يَسأَل مَخلوقًا، وإن كان قد أباح في مَوضِع مِن المَواضِع ذلك، لكنه لم يَأمُر به؛ بلِ الأفضل للعبد أن لا يَسأَل قطُّ إلا الله.

أمَّا قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فواضحٌ أنَّ الله نصَرَه بنصره الذي لا قُدرةَ لأحدٍ فيه، كما نصَرَه في الأحزاب وفي بدر، ونَصرَه أيضًا بالمؤمنين كما نصَرَه في حُنين حينما تولَّى أكثر الصحابة ثم دعاهم فعادوا؛ فصارت النتيجةُ -والحمدُ لله- أنَّ الله نصَرَه.

الخلاصة: نصر الله تعالى إيَّاه بالمؤمنين جائزٌ، وكون المؤمنين حسبًا للرسول ﷺ غيرُ جائزٍ.

[١] لو قال قائلٌ: هل في قوله تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ نوعٌ من التَّشريكِ؟

قُلنا: لا؛ لأنَّ إتيانَ الرسولِ ﷺ لهم بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، فهو كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾؛ وإنَّما نصَّ الله تعالى على إتيان الرسول إيَّاهم لئلا يقول قائلٌ: هذا من اجتهادِ الرسول عليه الصَّلاة والسلام فلنا أن نُنازع أو نُعارض! فبيَّن تعالى أنَّ إتيانَ رسوله كإتيانه تمامًا، ولكن نحن نعلمُ أنَّ إتيانَ الرسولِ ﷺ إنَّما يكون بأمرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وهذه النِّقاط التي ذكَرَها شيخُ الإسلام رحمه الله لا تكاد تأتي لكلِّ أحدٍ؛ فيجب للإنسانِ أن ينتَبِه لها.

كما ثبت في الصحيح في صِفة الذين يَدخُلون الجنة بغير حساب «**هُمُ الَّذِينَ لا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَكْتَوُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**»، فجَعَل من صِفاتهم: أنَّهم لا يَسْتَرْقون، أي: لا يَطلُبون من غيرهم أن يَرقِيَهم، ولم يقل: «لا يَرقُون» وإن كان ذلك قد رُوِي في بعض طرق مسلم؛ فهو غَلَط[١]، فإنَّ النبيَّ ﷺ «رَقَى نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ» لكنه لم يَستَرْقِ، فالمُسْتَرقِي طالِبُ الدُّعاء من غيره، بخلاف الرَّاقِي غيرَه، فإنه دَاعٍ له.

وقد قال ﷺ لابن عباس: «**إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**».

فهو الذي يُتَوَكَّل عليه، ويُستَعان به، ويُستَغاث به، ويُخاف ويُرجَى ويُعبَد، وتُنِيب القلوب إليه، لا حول ولا قُوَّة إلا به، ولا مَلجَأ منه إلا إليه، والقرآن كلُّه يُحقِّق هذا الأصل.

---

[١] جاء في بعض رِوايات مسلم: «لا يستَرقُون ولا يَرقُون»(١)، وهذه الكلمة غلَطٌ؛ لأنَّ رُقياهم لغيرهم إحسانٌ، والله تعالى يُحِبُّ المحسِنين، والنبيُّ ﷺ كان يَرقِي غيرَه، ويقول في رقية المريض: «**اللهمَّ رَبَّ الناسِ، أَذهِبِ الباسَ، واشْفِ أنتَ الشافي، لا شِفاءَ إلا شِفاؤك، شِفاءً لا يُغادر سقمًا**»(٢).

وبهذا نعرفُ أنَّه يُوجَد في الصحيحين ما يكون غَلَطًا، لكن الأصل فيهما أنَّه صحيح -لا شَكَّ في هذا- على أنَّ الغلَط لا يُوجَد في جميع الطُّرق، ولو تأمَّلت ما يحصل فيه الخطأ وجدته لا يأتي في جميع الطرق، لكن رواة الحديث لشِدَّة أمانَتِهم وتحرُّزهم يَنقِلون ما يَسمَعون.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حسابٍ ولا عذابٍ، رقم (٢٢٠/ ٣٧٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المرضى، باب دعاء العائد للمريض، رقم (٥٦٧٥)، ومسلم: كتاب الطب، باب استحباب رقية المريض، رقم (٢١٩١/ ٤٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والرسول ﷺ يُطاع ويُحَبُّ ويُرضَى ويُسلَّم إليه حُكْمه، ويُعزَّر ويُوقَّر ويُتَّبع، ويُؤمَن به وبما جاء به.

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [التوبة:٢٤].

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنَّه قال: «**ثَلاث مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا للهِ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ**»[1].

---

[١] قوله ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ»[1] هذا واضحٌ فيمَن أسلَمَ بعد كُفرٍ، لكن إذا كان مُسلمًا أصلًا فالظاهر أنَّه يصدُق عليه إذا كان يكره أنْ يكون كافرًا، كما يكره أنْ يدخُل النارَ، فإنَّه بذلك يجدُ حلاوةَ الإيمان، ولا مانعَ من أن يُقال لمن لم يَدخُل في الشيء: إنَّه لم يَعُدْ إليه أو عاد إليه، كما في قصَّة شعيب عليه السلام؛ إذ قال لقومه: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف:٨٩]، فالظاهر أنَّ الرجل المسلم أصلًا إذا كَرِهَ أنْ يكون كافرًا كما يكرَهُ أن يُقْذَفَ في النار فإنَّه سيجدُ حلاوةَ الإيمان، اللهمَّ ذَوِّقْنَا إيَّاهَا!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم (١٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب خصال من اتصف بمن وجد حلاوة الإيمان، رقم (٤٣/ ٦٧) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»، وقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ مِن كُلِّ شَيْء إلا مِن نَفْسي، قال: «لا يَا عُمَرَ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكِ»، قال: فلأنت أحبُّ إليَّ مِن نَفْسي، قال: «الآنَ يَا عُمَرُ»[١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١][٢].

---

[١] يعني: الآنَ تَمَّ إيمانُك؛ فقولُه ﷺ: «حتَّى أكونَ أحَبَّ إليْهِ مِنْ نَفْسِه»[(١)] هذا نفيٌ لكمالِ الإيمان لا لأصلِ الإيمان، فما دام يُوجَد في قلبه محبَّةٌ للرسول عليه الصَّلاة والسلام، وإن لم تَصِلْ إلى هذا الحدِّ فهو مؤمنٌ، لكن لا يَكْمُل إيمانُه حتَّى يكون الرسولُ ﷺ أحَبَّ إليه من ولَدِه ووالِدِه والناسِ أجمعين حتَّى من نفسِه؛ لأنَّ نفسَ الإنسان داخلةٌ في قوله: «وَالنَّاس أَجْمَعِينَ».

ومِن علامة محبَّة الرسول ﷺ: أن تُقدِّم قولَه على هَواك، فإنْ قدَّمت قوله على هواك دَلَّ ذلك على أنَّك تُحِبُّه أكثرَ من نفسك، وكذلك أن تَشعُر بنفسك أنَّه لو قُدِّمَ الرسولُ عليه الصَّلاة والسلام مثلًا للقتل -وحاشاه من ذاك- فدَيْتَه بنفسك، فهذا من علامةِ أنَّك تُحِبُّه أكثرَ من محبَّةِ نفسِك.

[٢] هذه الآية تُسمَّى آيةَ المحنةِ؛ يعني: الاختبار؛ لأنَّه ادَّعى قومٌ أنَّهم يُحِبُّون اللهَ؛ فقال الله للرسول ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ هذه علامة محبَّة الإنسان لربِّه أن يتَّبع الرسول ﷺ، وكل مَن كان للرسول ﷺ أتبع كان لله أحب، لكن انظُر الثَّمرة؛ فلم يَقُلْ: إنْ كنتم تحبون الله فافتدوني تصدُقوا في ذلك، بل قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وهذه الثَّمرة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب يمين النبي ﷺ، رقم (٦٦٣٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ -أي: الرسول خاصةً- ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح:٨-٩]؛ أي: تُسبِّحوا الله تعالى.

فالإيمان بالله والرسول، والتَّعزير والتَّوْقِير للرسول، والتَّسبيح لله وحده، وهذا الأصل مَبسوط في غير هذا المَوضِع.

وقد بَعَث الله مُحَمَّدًا ﷺ بتَحقِيق التَّوحِيد وتَحرِيده، ونَفْي الشِّرْك بكُلِّ وَجْه،

= العظيمة التي ينشُدها كلُّ إنسانٍ، فحقيقة أنَّك تحبُّ الله ليس ككونِ الله يحبُّك؛ ولهذا قال: «اتبعوني يحببكم الله»، فإذا كنت تنشدُ محبَّةَ الله وتحبُّها فعليك باتِّباع الرسول صلى الله عليه وسلم.

وهل يمكن أنْ نأخُذ من هذه الآية أنَّ دعوى أصحاب البدع محبَّة الرسول ﷺ يُكذِّبُها فِعلُهم؟

الجواب: نعم؛ لأنَّنا نقول: لو كنتُم تُحبون الرسول ﷺ حَقًّا لاتَّبَعْتُموه، ولو كنتُم تُحِبُّون اللهَ حقًّا لاتَّبعتُم رسوله ﷺ، ولو كنتم تتَّخذونه سيدًا لم تُقدِّموا عليه، وكيف يكون سيدًا وأنت تُخالِفُه، فأين السِّيادة؟

ولهذا ما أيسَرَ كسرَ عودِ هؤلاء الذين يقولون: أنتم لا تُقِيمون المولدَ للرسول عليه الصَّلاة والسلام، ولا تأتون بالسَّجْعِ الطويل العريض في الصَّلاةِ عليه ومَدحِه؛ فأنتم لا تُحِبُّونَه.

فنقول: سبحان الله! أيُّنَا أحقُّ بالمحبَّةِ؛ الذي يَتَّبعُ سُنَّتَه ولا يتعدَّاها، أو الذي يأتي بما حذَّر منه من البِدَعِ؟! لا شَكَّ أنَّه الأوَّل، وكسر عود هؤلاء لا يحتاجُ إلى مِعْوَلٍ قَوِيٍّ، بل سهل جدًّا.

حتَّى في الألفاظ؛ كقوله ﷺ: «**لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ**»[١]، وقال له رجل: ما شاء الله وشِئتَ، فقال: «**أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟ بَلْ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ**».

والعبادات التي شَرَعها الله كُلُّها تَتَضَمَّن إخلاص الدِّين كُلِّه لله، تَحقِيقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥][٢].

---

[١] في هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّ الإنسان إذا ذكَر شيئًا ممنوعًا للناسِ فليَذْكُر المأذونَ فيه؛ حتَّى لا يَسُدَّ البابَ أمامَ الناس؛ ولهذه القاعدةِ نظائرُ: منها في القُرآن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ [البقرة:١٠٤]، فلمَّا نهاهم عن قول: «راعنا» أتى لهم بالبدَل، ولما قال الرسول ﷺ للذي جاء بالتمر الطيِّب وأنَّه يأخُذ الصَّاع بالصَّاعين، قال: «**لا تفعل، ولكن بِعِ الرَّدِيءَ بالدَّراهِمِ ثم اشْتَرِ بالدَّراهِمِ طيِّبًا**»[(١)]، فلمَّا نهاه فتَح له البابَ المأذونَ له فيه، وهكذا ينبغي للإنسانِ -مُعلِّم الناس أو آمِرهم بالمعروف وهو ينهى عن المنكر- إذا بيَّن لهم البابَ المغلقَ فليُبيِّن لهم البابَ المفتوح، ولذلك فائدتان:

الفائدة الأولى: أنْ يعلم هذا الرجلُ وغيره أنَّ الشريعة -والحمد لله- لم تَسُدَّ الأبوابَ، فلم تغلقْ بابًا إلَّا وفتحَتْ أبوابًا.

الفائدة الثانية: أن يَسْهُلَ عليه الانتقالُ ممَّا هو عليه؛ لأنَّه لم يُحجِّر ويُغلقِ الباب دُونَه، بل فُتِحَ له بابٌ فيسهُل له الانتقال وتَرْك ما كان عليه.

[٢] يقولُ بعض المعربين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إنَّ اللام هنا زائدةٌ، والمعنى: وما أمروا إلا أنْ يعبدوا الله، ونظيرها: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾؛ أي:

---

(١) أخرجه الدارقطني (٣/ ٤٠٦)، وابن حبان (٥٠٢١) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

فالصَّلاة لله وحده، والصَّدَقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحَجُّ لله وحده، وإلى بَيْت الله وحده، فالمَقصود مِن الحَجِّ عِبادةُ الله وحده في البِقاع التي أَمَر الله بِعِبادته فيها، ولهذا كان الحَجُّ شِعار الحنِيفِيَّة، حتَّى قال طائفة مِن السلف: «حُنَفَاءَ لله: أي حُجَّاجًا» فإنَّ اليَهود والنَّصارى لا يَحُجُّون البيت.

قال طائِفةٌ مِن السَّلف: لما أنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥]، قالتِ اليَهود والنَّصارى: نحن مُسلِمون، فأَنزَل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧]، فقالوا: لا نَحُجُّ؟ فقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ [آل عمران:٨٥]، عامٌّ في الأَوَّلِين والآخِرين؛ فإن دِين الإسلام هو دين الله الذي عليه أنبياؤه وعِباده المُؤمِنون، كما ذكر الله ذلك في كتابه عن أَوَّل رسول بعثه إلى أهل الأرض: نوح، وإبراهيم، وإسرائيل، وموسى، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء والمُؤمِنين[١].

قال الله تعالى في حَقِّ نوح: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ

= يريد أنْ يُبيِّن لكم؛ لأنَّ «أراد» تتعدَّى بنفسها، وفائدة الإتيان باللام الإشارة إلى الإخلاص وتوحيد القصد.

[١] الكلام الآن في مسألة الإسلام، فكلُّ دِينٍ قائم فهو الإسلام؛ في أيِّ أمَّة، وفي أيِّ مكان، وفي أيِّ زمان؛ فقوم نوحٍ الذين أسلَمُوا معه -وما آمَن معه إلا قليل- مسلمون ودِينهم الإسلام، ومَن بعدهم كذلك، فإذا نُسِخَ الدِّينُ صار الناسخُ هو الإسلام، والمنسوخ لا يرضاه الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾.

أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٧١- ٧٢][1].

---

[١] التوكُّل العظيم للرُّسل لا يُدانيه شيءٌ! فقوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عَظُمَ عليكم هذا وشَقَّ عليكم، فأنا مُعتَمِدٌ على الله غايةَ الاعتماد ولا أُبالي بكم.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾؛ أي: اعزموا أمرَكم وائتُوا بعزمٍ ونشاطٍ وإقبالٍ، وأجمعوا شركاءكم أيضًا معَكُم ممَّن تعبُدونهم؛ ودًّا وسواعًا ويغوثَ ويعوقَ ونسرًا، ومع ذلك لا تأتون إلا على بصيرةٍ؛ كيف تقضُون عليَّ؟! فلا تأتون هكذا جُزافًا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾.

فسبحان الله! هذه القوَّة العظيمة مع أنَّه عليه السلام بَقِيَ فيهم ألفَ سَنة إلا خمسين عامًا، كلَّما دَعاهُم ازدادُوا عُتُوًّا ونُفُورا؛ كما قال عنه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾؛ حتى لا يسمعوا، ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾: تغطوا حتى لا يَنظُروا، ﴿وَأَصَرُّوا۟﴾ على ما هم عليه ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾؛ ومع ذلك صبَرَ صبرًا عظيمًا -ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عامًا- وهو يَدعُوهم.

فلمَّا أَيِسَ منهم دعا الله عليهم وقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦- ٢٧]؛ يعني: كأنَّه قدَّم الاعتذارَ لنفسه لَـمَّا قال: لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرين دَيَّارًا؛ يعني: ما دعوتُ إلا أنَّهم لو بقوا لأضَلُّوا العبادَ ولم يَلِدُوا إلا فاجرًا كَفَّارًا.

والشاهد من هذا قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأنَّ الإسلام دِينُ اللهِ في أيِّ مكانٍ وأيِّ زمانٍ ما دام دِين الله باقيًا فهو الإسلام.

وقال تعالى في إبراهيم وإسرائيل: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٠- ١٣٢][1].

وقال تعالى عن يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

وقال تعالى في موسى وقومه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤].

وقال في أنبياء بَنِي إسرائيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٤٤].

وقال تعالى عن بلْقِيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

---

[١] كون إبراهيمَ عليه السلام في الآخِرةِ من الصالحين لا يُنافي أنْ يكون مصطفًى حتى في الآخِرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧]، لكنَّه سبحانه وتعالى أراد أنْ يُبيِّنَ أنَّ إبراهيم عليه السلام استَحَقَّ الوصفَيْن: الاصطفاء والصَّلاح؛ ولهذا كانت الأنبياء عليهم السلام إذا ردُّوا على الرسول عليه الصَّلاة والسلام في ليلة المعراج يقولون: مرحبًا بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح، بينما أبَوَاه إبراهيم وآدم عليهما السلام يقولان: مرحبًا بالابنِ الصالحِ.

وقال تعالى عن أُمَّة عيسى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة:١١١].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران:٥٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:١١١- ١١٢][1].

وقد فُسِّر إسلام الوَجْه لله بما يَتضمَّن إخلاص قَصْده لله، وهو مُحسِن بالعمل الصالح المَأمور به، وهذان الأصلان جِماع الدِّين؛ أن لا نَعبُد إلا الله، وأن نَعبُده بِمَا شَرَع لا نَعْبُده بالبِدَع.

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠].

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في دُعائه: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلي كُلَّه صالِحًا، واجْعَلْه لوَجْهِكَ خالِصًا، وَلا تَجْعَلْ لأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا».

---

[١] تأتي «بلى» في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا دون أنْ يكون هناك استفهامٌ تكون جَوابًا له، وحِينئذٍ نقول: هي مُضمَّنة معنى «بل» فقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ بمعنى: بل مَن أسلَمَ، وتأتي كثيرًا في كلام ابن القيم رحمه الله -لا سيَّما في النونية- تكون مُضمَّنة لمعنى «بل» الدالَّة على الإضراب وإبطال ما سبق.

وقال الفُضَيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، قال: أَخلَصُه وأَصوَبُه، قالوا: يا أبا علي، ما أَخلَصُه وأَصوَبُه؟ قال: إن العمل إذا كان خالِصًا ولم يَكُن صوابًا لم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يَكُن خالِصًا لم يُقبَل، حتَّى يَكون خالِصًا صَوابًا، والخالص أن يَكون لله، والصواب أن يَكون على السُّنَّة[١].

وهذان الأصلان هما تَحقِيق الشَّهادتين اللَّتين هما رأس الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله، فإن الشهادة لله بأنه لا إله إلا هو تَتَضمَّن إخلاص الإلهية له، فلا يَجوز أن يَتألَّه القلب غيره: لا بِحُبٍّ، ولا خَوفٍ، ولا رَجاءٍ، ولا إجلالٍ، ولا إكرام، ولا رَغبةٍ، ولا رَهبةٍ؛ بل لا بد أن يكون الدِّين كُلُّه لله، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩][٢].

---

[١] هل لنا أن نجزم أنَّ ما يعمَله أهل البدع ممَّا ليس مشروعًا غير مقبول؟

الجواب: نعم؛ لنا أن نجزم حتَّى في التعيين، فلو رأَينا شَخصًا يقوم ببدعةٍ بعَيْنِه نقول: عملك هذا غير مقبولٍ، فإذا قَدَّرْنا أنَّ هذا جاهلٌ، والجاهل لا يأثم، فهل نقولُ: عملُه غير مقبولٍ؟ نعم، عمله غير مقبولٍ، وإن كان قد يُؤجَر على حُسنِ نِيته وتَعَبه، لكن لا يُقبَل على أنَّه عملٌ صالحٌ.

[٢] **قوله رحمه الله**: «لا رجاء ولا إجلال ولا إكرام ولا رغبة ولا رهبة...» إلى آخِر كلامه، مُراده: إكرام العبادة، أمَّا إكرام العادة فلا بأسَ، بل الإنسان مأمورٌ به كما قال النبيُّ ﷺ: «**مَن كان يُؤمِنُ بالله واليومِ الآخِر فليُكرم جارَه... فليُكرِم ضيفَه**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٨/ ٧٧) من حديث أبي شريح العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذا كان بَعْض الدِّين لله، وبعضه لغيره كان في ذلك مِن الشِّرْك بحَسَب ذلك.

وكمال الدِّين كما جاء في الحديث الذي رواه التِّرمذي وغيره: «مَنْ أَحَبَّ لله، وَأَبْغَضَ لله، وَأَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله: فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ».

فالمُؤمِنون يُحِبُّون لله، والمُشرِكون يُحِبُّون مع الله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

والشهادة بأن محمدًا رسول الله تَتَضَمَّن تَصدِيقه في كل ما أَخبَر، وطاعته في كل ما أَمَر، فما أَثبَتَه وَجَبَ إِثباتُه، وما نَفَاه وَجَبَ نفيُه.

كما يَجِب على الخَلْق أن يُثبِتوا لله ما أَثبَتَه مِن الأسماء والصِّفات، ويَنفُوا عنه ما نَفَاه عنه؛ مِن مُماثَلة المَخلُوقات، فيَخْلُصوا مِنَ التَّعطِيل والتَّمثِيل، ويَكونوا في إِثبات بِلا تَشبِيه، وتَنزِيه بلا تَعطِيل.

وعليهم أن يَفعَلوا ما أَمَرَهم به، وأن يَنْتَهوا عما نَهَى عنه، ويُحِلُّوا ما حلَّلَه، ويُحَرِّموا ما حرَّمه؛ فلا حَرام إلا ما حَرَّمه الله ورسوله، ولا دِينَ إلا ما شَرَعه الله ورسوله؛ ولهذا ذَمَّ الله المُشرِكين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما، لكونهم حَرَّموا ما لم يُحَرِّمه الله، ولِكونهم شَرَعوا دِينًا لم يَأذَن به الله.

كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:١٣٦] إلى آخر السورة، وما ذَكَره في صدر سورة الأعراف، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

وقد قال تعالى لنَبِيِّه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦]، فأَخْبَره أنَّه أَرسَله داعيًا إليه بإذنه.

فمَنْ دَعا إلى غير الله فقد أَشرَك، ومَن دَعا إليه بغير إِذْنه فقدِ ابْتَدَع، والشرك بدعة[١]، والمُبتَدِع يَؤُول إلى الشِّرْك، ولم يُوجَد مُبتَدِع إلا وفيه نوع مِنَ الشِّرْك، كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

وكان مِن إِشْراكهم بهم أنَّهم أَحلُّوا لهم الحرام فأَطاعوهم، وحرَّموا عليهم الحلال فأَطاعوهم[٢].

وقد قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩][٣].

---

[١] شِركُ المبتدِع نوعان: نوع يتعلَّق بالألوهية، ونوع يتعلَّق بالربوبية:

أمَّا الذي يتعلَّق بالربوبية فلأنَّه شرَّع ونصَّب نفسَه حاكمًا ومشرِّعًا؛ لأنَّه لا يفعل البدعة إلَّا وهو يعتقد أنَّها قُربة. وأمَّا ما يتعلَّق بالألوهية فلأنَّه اتَّبع هواه، وخالَف مولاه، وهذا يتعلَّق بالعبادة والألوهية.

[٢] مسألة التكفير دخَلَها الهوى كثيرًا، حتى إنَّ بعض الناسِ لو فصَّل في هذا المقام قالوا: هذا مُرجِئٌ، وبعضهم لو كفَّر عملًا في موضعِ التكفير قالوا: هذا خارِجِيٌّ، مع أنَّ الطريق واضحٌ -والحمد لله- والدِّين الإسلامي كله جاء لتثبيت المصالح وتقريرِها ودَرْءِ المفاسد واجتنابها.

[٣] الجزية: ما يُؤخَذ جَزاءً عليهم؛ لأنَّ أهلَ الذِّمَّة يكونون تحتَ سَيْطَرةِ المسلمين وتحت رِعايتهم وتحتَ حمايتهم، فتُضرَب عليهم جِزيةٌ يُقدِّرها الإمام حسَب ما يرَى.

.....

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾؛ أي: أنْ يأتي الواحدُ منهم بها هو بيده فيُسلِّمها لا يُرسل بها خادمَه ولا صديقَه، ولو كان أفضل ما يكون من النَّصارى أو اليهود أو أهل الذِّمَّة لا بُدَّ أن يأتي هو بها يُسلِّمها عن يدٍ، حتى لو وَقَفَ وكان قبلَه عشرين رجلًا كلهم دُونَه في المرتبة والمنزِلة فإنَّه يَبقَى حتى يَصِلَ إليه الدَّوْرُ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾؛ أي: غير مُستكبِرين، فلا يأتي على سيَّارة فَخْمةٍ، ولا يأتي بصورةٍ تنمُّ على استكبار، بل يكون صاغرًا ذليلًا.

وقال بعض العلماء: معنى ذلك أنَّه يُجْبَر على تسليمِها بيَدِه، ثم يأخذُها الوالي من يَدِه بعُنْفٍ وشِدَّةٍ حتى يَكاد ينزع يده، ليَكُونَ صاغِرًا بذلك، لكن الظاهر أنَّ هذا القول ضعيفٌ، ولا ينبغي للمسلمين أنْ يستَعمِلوا هذا العُنف، لكنَّه قولٌ قِيلَ به.

وتأمَّل حالَ المسلمين اليومَ ستجدُ أنَّهم يمدُّون يدَ المصافحة والمصالحة بدُون حاجةٍ أو ضَرورةٍ، أمَّا مع الضَّرورة فلا بأسَ أن نُصالِحَهم كما صالَحَ النَّبيُّ ﷺ أهلَ مكَّة، وغيرَ أهل مكَّة أيضًا، حتى صالَح اليهود وجعَل بينَه وبينَهم عهدًا، فلا يُقالُ: إنَّ الرسولَ ﷺ صالَحَ أهلَ مكَّة من أجل تعظيمِ مكَّة لا من أجلِ أنَّه لا يريدُ أنْ يُقاتِلَهم، سَواءٌ كان لتعظيمِ مكَّة أو لغير ذلك من أسبابٍ، ولكن ينتقد بها فيما لو أراد إنسانٌ أن يعترض ويقول: مُصالحة الرسول عليه الصَّلاة والسلام ليس مصالحة لوضع الحربِ مع الكفَّار ولكن لتعظيم مكَّة؟! قُلنا: إذا لم تقبل هذا، فماذا تقولُ في مصالحة اليهود في المدينة فقد صالَحَهُم عليه الصَّلاة والسلام، وعقَد معهم عقدًا مُطلَقًا لم يُقيد بشيء، وبقوا في المدينة!

فعلى كلِّ حال: الذي نرَى معنى الآية الكريمة ﴿عَن يَدٍ﴾؛ أي: يُسلِّمها بيده لا يُرسل بها خادمَه ولا جارَه ولا صديقَه ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾؛ يعني: لا يأتي بهيئة استكبار واستعلاء، بل يكون كغيره من الناسِ، نسألُ الله أن يعيدَ للمسلمين مجدَهم.

فقَرَن بعَدَم إيمانهم بالله واليوم الآخر أنَّهم لا يُحرِّمون ما حَرَّم الله ورسوله، ولا يَدِينون دِينَ الحقِّ.

والمُؤمِنون صَدَّقوا الرسول فيما أَخْبَر به عن الله وعن اليوم الآخِر؛ فآمَنوا بالله واليوم الآخِر، وأَطاعوه فيما أَمَر ونَهَى، وحَلَّل وحَرَّم؛ فحَرَّموا ما حَرَّم الله ورسوله، ودانوا دِين الحَقِّ؛ فإنَّ الله بَعَث الرسول يَأمُرُهم بالمَعروف ويَنهاهم عن المُنكَر، ويُحِلُّ لهم الطَّيِّبات، ويُحرِّم عليهم الخبائث، فأَمَرهم بكل مَعرُوف، ونَهاهم عن كل مُنكَر، وأَحلَّ لهم كُلَّ طَيِّب، وحَرَّم عليهم كل خَبِيث[1].

ولَفْظ «الإسلام» يَتَضَمَّن الاستِسلام والانقِياد، ويَتَضَمَّن الإخلاص من قوله

---

[١] الظاهر من معنى قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ أنَّ كُلَّ ما حرم عليهم فهو خبيثٌ، وليس المعنى أنَّ كلَّ خبيثٍ فهو حرام؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ وصَف البصل والثوم بأنَّهما شجرتان خبيثتان(١)، ومع ذلك لم يُحرِّمهما؛ أي: الثوم والبصَل.

ثُمَّ الخُبْثُ تختلفُ فيه الطَّبائع؛ فبعضُ الناس يستخبثُ الطيِّبَ، وبعض الناس يستطيبُ الخبيث؛ فبعض الناس يستخبثُ الجرادَ، مع أنَّ الجراد أُكِلَ على عهد النبيِّ ﷺ؛ فقد غزا ﷺ سبع غزوات وكانوا يأكُلون الجرادَ، وبعض الناس لا يأكُله ويستخبثه، وبعض الناس لا يستخبث شيئًا، حتى قِيلَ عن بعضِ العرَب: إنَّهم يأكلون كلَّ شيءٍ إلا أم حُبَيْن.

لذلك كان معنى الآية عندي -والله أعلمُ بما أراد بكلامه، سبحانه وتعالى-: أنَّ كلَّ ما حَرَّمَهُ عليهم فهو خبيثٌ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا أو كراثًا أو نحوها، رقم (٥٦٧/ ٧٨) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] فلا بد في الإسلام مِن الاستِسلام لله وحده، وتَرْك الاستِسلام لِمَا سِواه، وهذا حقيقة قَولِنا: «لا إله إلا الله» فمَنِ استَسلم لله ولغيره فهو مُشرِك، والله لا يَغفِر أن يُشرَك به، ومَن لم يَستَسلِم له فهو مُستكبِر عن عِبادته؛ وقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وثَبَت عنه ﷺ في الصحيح أنَّه قال: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**»[1]. فقيل له: يا رسول الله،

---

[١] قولُه ﷺ: «**لا يَدخُل الجنَّةَ مَن كان في قلبِه مِثقال ذَرَّةٍ من كِبْرٍ**»[1] المراد: لا يدخُلها دُخولًا مُطلَقًا، فالدُّخول نوعان: دخول مُطلَق لا يُسبَق بعذاب، ودخول مُقيَّد مسبوق بعُقوبةٍ، فمَن فيه كبرٌ المراد بدُخوله الدُّخول المطلَق الذي لم يُسبَق بعَذابٍ، ثمَّ مع ذلك فإنَّ الدُّخول المقيَّد المسبوق بعَذاب قد يعفو الله عنه ويغفره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وكذلك قوله ﷺ: «**لا يَدخُل النَّار مَن كان في قلبِه مِثقال ذَرَّةٍ من إيمانٍ**»، المراد أيضًا الدُّخول المطلَق؛ لأنَّه قد يكونُ في قَلبِه مِثقال ذرَّات من إيمانٍ، لكن يدخُل النَّار ويُعذَّب بقدرِ ذُنوبِه، فالمراد بالنَّفي هنا النفي الكامل؛ يعني: النَّفي المطلق.

فإذا قال قائل: ما الدليل على كلامكم هذا؟

قلنا: الدليلُ الشَّريعةُ الإسلاميَّةُ؛ لأنَّ نصوص الكتاب والسُّنَّة مشكاةٌ واحدة، يُقيِّد بعضُها بعضًا، ويُخصِّص بعضُها بعضًا، ويُبيِّن بعضُها بعضًا؛ فلا تُؤخَذ الشريعةُ من نَصٍّ واحدٍ، بل من نُصوصٍ مُتعدِّدةٍ.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (٩١/ ١٤٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرَّجُل يُحِبُّ أن يَكون ثَوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حَسَنًا، أَفَمِن الكِبْر ذاك؟ قال: «لا، إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[١].

بَطَرُ الحقِّ: جَحْده ودَفْعه، وغَمْط الناس: ازدِراؤهم واحتِقارهم، فاليَهود مَوصوفون بالكِبْر، والنصارى مَوصُوفون بالشِّرْك.

قال تعالى في نَعت اليَهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

وقال في نَعْت النصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١].

ولهذا قال تعالى في سِياق خِطاب النَّصارى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

وقال تَعالى في سِياق تَقريره للإسلام وخِطابه لأهل الكِتاب: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ

---

[١] قوله ﷺ: «إِنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ» هل المراد بالجمال جَمال الشَّخص أو المراد به التجمُّل؟ الثاني هو المراد؛ وذلك لأنَّ الأوَّل ليس للإنسان فيه حيلةٌ؛ لأنَّه خلقُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فالقبحُ والجمالُ كلاهما خَلْقُ الله سبحانه، والذي تتعلَّق به المحبَّةُ ما كان للإنسانِ فيه أَثَرٌ، وهو التجمُّل؛ ودليلُ ذلك: أنَّ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ قالوا: يا رسولَ اللهِ، الرجلُ يُحِبُّ أنْ يكون ثوبه حَسَنًا ونعله حَسَنًا -وهذا من التجمُّل- فقال: «إِنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمالَ»؛ أي: الجمالَ الحاصلَ بالتجمُّلِ، لا جمال الصورة التي خلَقَها الله؛ لأنَّ هذا لا اختيارَ للإنسانِ فيه.

مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾ [البقرة:١٣٦- ١٤٠].

ولـمَّا كان أصل الدِّين الذي هو دِين الإسلام واحدًا، وإنَّما تَنَوَّعتِ الشَّرائِع، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ**»، و«**الأَنْبِياءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ**»، و«**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ**»[١].

---

[١] قوله ﷺ: «**أنا أَوْلَى الناسِ بابنِ مريمَ**»(١) معناه: أَوْلاهُم به من حيث التَّصدِيقُ والإيمانُ به، كقولِه ﷺ لليهودِ: «**نحن أَوْلَى بموسى مِنكُم**»(٢)؛ أي: بالتَّصدِيقِ به كذلك، وأَوْلَى: من الولايةِ؛ يعني: الذي يَلِيه، فليس بين مُحَمَّدٍ ﷺ وعيسى ابن مريمَ نبيٌّ؛ ولهذا ما يُوجَد في كتب التاريخ من أنَّ بعض العرب نُبِّئُوا كذبٌ بلا شكٍّ، مثل خالد بن سِنان ورجل آخَر -وهما من العرب-؛ فهذا كذبٌ بلا شكٍّ؛ لقوله تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾ [البقرة:١٢٩]، وبإجماع المفسرين أنَّ المراد به محمد ﷺ؛ ولقوله ﷺ: «**لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ عِيسَى نَبِيٌّ**»(٣)؛ ولهذا جاءت رسالة الرَّسول ﷺ والناس أحوج إليها من الطَّعام والشَّراب والهواء، على حِين فَترةٍ من الرُّسُل؛ الناس لا يعرفون ربًّا، ولا يَعبُدون إلهًا، فهم في أَشَدِّ ما يكون حاجةً إلى الرِّسالات.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب (٤٨)، رقم (٣٤٤٢، ٣٤٤٣)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، رقم (٢٣٦٥/ ١٤٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب إتيان اليهود النبي ﷺ، حين قدم المدينة، رقم (٣٩٤٣)، ومسلم: كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم (١١٣٠/ ١٢٧) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، رقم (٢٣٦٥/ ١٤٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فدِينُهم واحِد، وهو عِبادة الله وحده لا شَرِيك له، وهو يُعبَد في كُلِّ وقْت بما أَمَر به في ذلك الوَقْت، وذلك هو دِين الإسلام في ذلك الوقت.

وتَنَوُّع الشرائِع في النَّاسِخ والمَنسوخ مِن المَشروع كتَنَوُّع الشَّرِيعة الواحِدة[١]، فكَما أن دِين الإسلام الذي بَعَث الله به مُحَمَّدًا ﷺ هو دِين واحِد، مع أنَّه قد كان في وقت يَجِب استِقبال بيت المَقْدِس في الصَّلاة كما أُمِر المُسلِمون بذلك بعد الهجرة ببِضعةَ عَشَرَ شَهرًا؛ وبعد ذلك يَجِب استِقبال الكعبة، ويَحرُم استِقبال الصخرة[٢].

فالدِّين واحد وإن تَنَوَّعَت القِبلة في وقتين من أوقاته، فهكذا شَرَع الله تعالى لبَنِي إسرائيل السَّبت، ثمَّ نَسَخ ذلك وشَرَع الجُمُعة، فكان الاجتِماع يَوم السَّبت واجِبًا إذ ذاك، ثمَّ صار الواجِب هو الاجتِماع يوم الجُمُعة، وحرَّم الاجتِماع يوم السبت.

فمَن خَرَج عن شريعة موسى قبل النَّسْخ لم يَكُن مُسلِمًا، ومَن لم يَدخُل في شريعة مُحمد ﷺ بعد النَّسخ لم يَكُن مُسلِمًا.

ولم يَشرَع الله لنَبِيٍّ مِن الأنبياء أن يُعبَد غير الله البَتَّة؛ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الشورى:١٣].

فأَمَر الرُّسَل أن يُقِيموا الدِّين ولا يَتَفَرَّقوا فيه.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥١- ٥٢].

---

[١] يعني: كما أنَّ دِينَ الإسلام فيه ناسخٌ ومنسوخٌ فكذلك الأديان في الجُملة فيها ناسخ ومنسوخ.

[٢] ذَكَر الشيخُ رحمه الله الواجبَ، وأمَّا المحرَّم فكما حرَّم زيارة القبور ثم صارت مشروعةً.

وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم:٣٠- ٣٢].

فأهل الإشراك مُتفرِّقون، وأهل الإخلاص مُتَّفِقون.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود:١١٨-١١٩] فأهل الرَّحْمة مُتَّفِقون مُجْتَمِعون، والمُشرِكون فَرَّقوا دِينهم وكانوا شِيعًا.

ولهذا تَجِد ما أُحدِث مِن الشِّرْك والبِدَع يَفتَرِق أهله، فكان لكل قَوم مِن مُشرِكي العرب طاغوت يَتَّخِذونه نِدًّا مِن دون الله فيُقرِّبون له، ويَستشفِعون به، ويُشرِكون به، وهؤلاء يَنفِرون عن طاغوت هؤلاء؛ وهؤلاء وهؤلاء يَنفِرون عن طاغوت هؤلاء.

بل قد يَكون لأهل هذا الطاغوت شريعة ليست للآخَرين، كما كان أهل المدينة الذين يُهِلُّون لمَناةَ الثالثة الأُخْرى، ويَتَحَرَّجون مِن الطَّواف بين الصَّفا والمَروة، حتَّى أَنزَل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة:١٥٨].

وهكذا تَجِد مَن يَتَّخِذ شيئًا من نَحْو الشِّرْك؛ كالذين يَتَّخِذون القبور وآثار الأنبياء والصالِحين مَساجِد، تَجِد كل قوم يَقصِدون بالدُّعاء والاستعانة والتَّوَجُّه عند من لا تُعظِّمه الطائفة الأُخرى، بخلاف أهل التَّوحِيد، فإنَّهم يَعبُدون الله لا يُشرِكون به في بُيُوته التي قد أَذِن الله أن تُرفَع ويُذكَر فيها اسمه، مع أنَّه قد جُعلت لهم الأرض مَسجِدًا وطَهورًا.

وإن حَصَل بَيْنهم تَنازُع في شيء ممَّا يَسُوغ فيه الاجتِهاد لم يُوجِب ذلك تَفرُّقًا ولا اختِلافًا؛ بل هم يَعلَمون أن المُصِيب مِنهم له أَجْران، وأن المُجتَهِد المُخطِئ له

أجر على اجتهاده، وخَطؤه مَغفُور له، والله هو مَعبُودهم وحده، إياه يَعبُدون، وعليه يَتوَكَّلون، وله يَخشَون ويَرجُون، وبه يَستَعِينون ويَستَغِيثون، وله يَدعُون ويَسأَلون، فإن خرجوا إلى الصَّلاة في المَساجِد؛ كانوا مُبتَغِين فضلًا منه ورِضوانًا، كما قال تعالى في نَعتِهم: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح:٢٩].

وكذلك إذا سافروا إلى أحد المَساجِد الثلاثة، لا سيما المَسجِد الحرام الذي أُمِروا بالحَجِّ إليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة:٢] فهم يَؤُمُّون بَيْته، ويَبْتَغون فَضْلا، مِن ربِّهم ورِضوانًا، لا يَرغَبُون إلى غيره، ولا يَرجُون سِواه، ولا يَخافون إلا إيَّاه.

وقد زَيَّن الشيطان لكثير مِن الناس سُوءَ عَمَلهم واستَزَلَّهم عن إخلاص الدِّين لله إلى أنواع مِنَ الشِّرك، فيَقصِدون بالسَّفر والزِّيارة الرَّجاء لغير الله والرَّغبة إليه، ويَشدُّون الرِّحال إمَّا إلى قَبْر نَبِيٍّ أو صاحِب أو صالِح، أو مَن يُظَنُّ أنَّه نَبِيٌّ أو صاحِب أو صالِح؛ داعِين له، راغِبين إليه.

ومِنهم مَن يَظُنَّ أن المَقصُود مِن الحَجِّ هو هذا، فلا يَستَشعِر إلا قَصْد المَخْلوق المَقبور.

ومِنهم مَن يرى أن ذلك أَنفَع له مِن حَجِّ البيت!

ومِن شُيوخهم مَن يَحُج، فإذا دَخَل المَدينة رَجَع وظَنَّ أن هذا أبلغ.

ومِن جُهَّالِهم مَن يَتوَهَّم أن زيارة القبر واجِبة.

ومِنهم مَن يَسأَل المَقبُور المَيت كما يسأَل الحَيَّ الذي لا يَموت، فيَقول: يا سيِّدي فلان، اغفِرْ لي، وارحَمْني، وتُبْ عليَّ، أو يَقول: اقْضِ عَنِّي الدَّين، وانصُرْني على فلان،

وأنا فِي حسبك، أو جِوارِك، وقد يَنذُرون أولادهم للمَقبور[١]، ويُسَيِّبون له السَّوائِب مِن البَقَر وغيرها، كما كان المُشرِكون يُسَيِّبون السَّوائِب لطَواغِيتهم.

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦].

ومِن السَّدَنة مَن يُضِلُّ الجُهَّال فيَقول: أنا أَذكُر حاجتك لصاحِب الضَّريح، وهو يَذكُرها للنَّبِي، والنَّبِي يَذكُرها لله[٢].

ومِنهم مَن يُعلِّق على القبر المَكذوب، أو غير المَكذوب، مِن السُّتور والثِّياب، ويَضَع عنده مِن مَصوغ الذَّهب والفضة ما قد أجمع المُسلِمون على أنَّه ليس مِن دِين الإسلام، هذا والمَسجِد الجامِع مُعطَّل خراب صورةً ومَعنًى!!

وما أكثرَ مَن يَرى مِن هؤلاء أن صلاته عند هذا القَبْر المُضاف إلى بعض المُعظَّمِين -مع أنَّه كَذِب في نَفْس الأمر- أعظمُ مِن صلاته في المَساجِد -بُيوت الله- فيَزدَحِمون للصلاة في مَواضِع الإشراك المُبتَدَعة، التي نَهَى النبي ﷺ عن اتِّخاذِها مَساجِد -وإن كانت على قبور الأنبياء- ويَهجُرون الصَّلاة في البُيوت التي أَذِن الله أن تُرفَع ويُذكَر فيها اسمه، التي قال فيها: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

---

[١] **قوله رحمه الله:** «وقد يَنذرون أولادَهم للمَقبورِ»؛ أي: مثل قول: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ [آل عمران:٣٥]؛ فينذرونه لِخِدْمةِ هذا المقبورِ ليَكُونَ سادِنًا له.

[٢] وهذا السادن إذا قال هذا الكلام للجاهل أخذ عليه دراهم كثيرة!

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة:١٨].

ومِن أكابِرهم مَن يَقول: الكعبة في الصَّلاة قِبلة العامَّة، والصَّلاة إلى قبر الشَّيخ فلان -مع استِدْبار الكعبة- قِبلةُ الخاصَّة، وهذا وأمثاله مِن الكُفْر الصَّريح باتِّفاق عُلماء المُسلِمين.

وهذه المَسائِل تَحتَمِل في البَسْط وذِكر أَقوال العُلماء فيها ودلائلها أكثر مِمَّا كَتَبْناه في هذا المُختَصَر، وقد كَتَبنا في ذلك في غير هذا المَوضِع ما لا يَتَّسِع له هذا المَوضِع، وإنَّما نَبَّهنا هنا على رُؤوس المَسائِل، وجِنْس الدَّلائِل، والتَّنْبيه على مَقاصِد الشريعة وما فيها من إخلاص الدِّين لله وعبادته وحده لا شريك له، وما سدَّتْه مِن الذَّرِيعة إلى الشِّرك دِقِّه وجُلِّه، فإنَّ هذا هو أصل الدِّين، وحقيقة دِين المُرسَلِين، وتَوحِيد ربِّ العَالَمِين.

وقد غَلِط في مُسَمَّى التَّوحِيد طَوائِفُ مِن أهل النَّظَر والكلام[1]، ومِن أهل الإرادة والعِبادة، حتَّى قَلَبوا حقيقته.

فطائِفة ظَنَّت أن التَّوحِيد هو نفيُ الصفات؛ بل نَفْي الأَسماء الحُسنى أيضًا؛ وسَمَّوا أنفسهم أهلَ التَّوحِيد، وأَثبَتوا ذاتًا مُجَرَّدة عن الصِّفات، أو وُجودًا مُطلَقًا بشرط الإطلاق، وقد عُلِم بصَرِيح المَعقول المُطابِق لصَحِيح المَنقُول أن ذلك لا يَكون إلا

---

[١] هم يقولون: إنَّ الصِّفات قديمةٌ، فإذا أثبت سمعًا قديمًا وعِلمًا قديمًا وعَمَلًا قديمًا أثبتَّ عدَّة قُدَماء، وأخصُّ وصفٍ للإله عندَهم هو القِدَم، فكلُّ قديمٍ عندهم هو إله، فيقولون: إنَّنا إذا أثبَتْنا الصفات أثبَتْنا تعدُّدَ القدماء، وهذا شِرْكٌ.

فإذا كان النَّصارى أشرَكُوا بإثباتِ ثلاثةٍ فهؤلاء أشرَكُوا بإثباتِ مئة أو مئاتٍ، وهذا من تلاعُب الشيطان!

في الأَذهان لا في الأَعيان، وزَعَموا أن إثبات الصِّفات يَستَلزِم ما سَمَّوه تَركِيبًا، وظَنُّوا أن العَقْل يَنفِيه، كما قد كَشَفنا أَسرارَهم، وبَيَّنَّا فَرْط جَهلِهم، وما أَضَلَّهم مِن الأَلفاظ المُجمَلة المُشتَرَكة في غير هذا المَوضِع.

وطائِفة ظَنُّوا أن التَّوحِيد ليس إلا الإقرارَ بتَوحِيد الرُّبوبِيَّة، وأن الله خَالِق كُلِّ شيء، وهو الذي يُسمُّونه تَوحِيد الأفعال.

ومِن أهل الكلام مَن أطال نظره في تقرير هذا التَّوحِيد، إما بدليل أن الاشتراك يُوجِب نَقْص القُدْرة، وفوات الكمال، واستِقلال كُل مِنَ الفاعلين بالمَفعول مُحال، وإما بغير ذلك مِن الدلائل، ويَظُنُّ أَنَّه بذلك قرَّر الوحدانيَّة، وأَثْبَت أَنَّه لا إله إلا هو، وأن الإلهية هي القُدرةُ على الاختِراع، أو نحو ذلك، فإذا ثَبَتَ أَنَّه لا يَقدِر على الاختِراع إلا الله، وأنه لا شَرِيك له في الخَلْق: كان هذا معنى قولنا: «لا إله إلا الله» ولم يَعلَم أن مُشرِكي العرب كانوا مُقرِّين بهذا التَّوحِيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الآياتِ [المؤمنون:٨٤- ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

قال ابن عباس وغيره: «تَسأَلُهم مَن خَلَق السَّمَوات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع ذلك يَعبُدون غَيرَه».

وهذا التَّوحِيد هو مِن التَّوحِيد الواجِب، لكن لا يَحصُل به الواجِب، ولا يَخلُص بمُجرَّده عن الإشراك الذي هو أكبر الكبائر الذي لا يَغفِره الله؛ بل لا بُدَّ أن يُخلِص لله الدِّين، فلا يُعبَد إلا إيَّاه، فيَكون دِينه كُلُّه لله.

و«الإله» هو المَألوه الذي تَألَهه القلوب، وكونه يَستَحِقُّ الإلهية مُستلزِمٌ لصِفات